

الفصل الرابع

الحركة الصوفية الشعرانية في مصر

زكريا سليمان بيومي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، كلية التربية، جامعة المنصورة - مصر

dr_zakaria55@yahoo.com

المقدمة:

الإمام عبد الوهاب الشعراني في القرن العاشر الهجري، فقد ولد الشعراني في السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٩٨/١٤٩٢م، وكافة المصادر التي أوضحت ذلك ذكرت أنه على الأرجح ولد في هذا التاريخ، وأيده هو نفسه، وربما يعود عدم القطع بتاريخ ميلاده أنه اختار ٢٧ رمضان وهي ليلة القدر غالباً عند المسلمين، ولا شك في أن من يرجع مولده إليها يضيف عليه نصيباً من البركة.

و المراجع تشير إلى انتمائه إلى قرية قلقشنده، حيث ولد وهي بلدة أمه، ثم قرية ساقية أبو شعره قرية أبيه،^(١) لكنه أضاف إلى نسبه أنه من أبناء ملوك يمتد نسبهم إلى محمد بن الحنفية إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو نسب يحرص عليه البعض كي يضيف عليهم مكانة ومهابة لدئ عموم المسلمين.

أما عن الظروف التاريخية التي أحاطت بمولده وحياته فقد عاش فترة انتقال حكم مصر من المماليك إلى العثمانيين، فكان عمره يزيد على العشرين قليلاً حين دخل العثمانيون مصر (١٥١٧م / ٩٢٣هـ)، وأما على الصعيد الاقتصادي فكانت أحوال مصر ضعيفة وزادها دخول العثمانيين ضعفاً لاهتمامهم بالضرائب دون الإصلاح، مما أسهم في تردي الأحوال الاجتماعية من فقر ونقص للجهل.^(٢) ووسط هذا الجهل لعبت الطرق الصوفية دوراً بارزاً رآه البعض نهضة بالعلوم الدينية في حين رآه آخرون دعماً للجهل ودعوة لتقبله، وكان لهذا الدور مجازة للحكام السياسيين سواء في الفترة المملوكية أم في الفترة العثمانية، سواء لرغبة هؤلاء الحكام في دعم التصوف السلوكي لاستقرار الأوضاع

تعد الحركات الفكرية والمذهبية واحدة من العوامل المهمة في توجيه الفكر في المجتمعات، وتعد من وجهة أخرى من مقومات وجود الأنظمة وبقائها، فقد عملت مثل هذه الحركات على مر العهود الإسلامية على دفع المجتمعات وفق أنظمة فكرية عفوية أو مدروسة.

ويعد التصوف من أكبر الحركات الفكرية انتشاراً في أرجاء العالم الإسلامي، فقد امتدت جذوره في المشرق العربي والمغرب العربي على نحو كبير، وفي الوقت ذاته كان له أثره الفكري الكبير في مختلف أطراف المجتمع الإسلامي، فقد عملت الصوفية فكراً ومذهباً على تطوير الفكر الإسلامي إضافة أو تعديلاً أو حذفاً.

ومصر كغيرها من الدول العربية دخلتها الأفكار الصوفية التي وصلت حد التضارب، وقد لاقت هذه الأفكار في مصر رواجاً واسعاً، وانتشاراً كبيراً، وكان لكل فكر مريدوه وأتباعه المخلصون له، وهذا حال الحركة الشعرانية في مصر.

ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على الحركة الشعرانية، نشأة وفكرها وفلسفة، فتناول الحديث عن حياة رائدها الشعراني، كما تحدث عن روافده الفكرية والثقافية، وفي محور آخر تناول البحث الحديث عن أهم الأفكار التي قامت على أساسها الحركة الشعرانية، التي عمدت إلى نشرها في المجتمع المصري آنذاك، ولعل من أهمها فكرة دولة الفقراء.

أولاً: النشأة التاريخية

ترتبط هذه الحركة من حيث نشأتها بنشأة رائدها

العلماء العاملين، لأنه رجل كامل عندنا بلا شك، والكامل إذا بلغ مقام الكمال في العرفان صار غريباً في الأكوان"، ومع الخواص تبدأ حركة الشعراني الصوفية. ويذكر بعض الباحثين أن الشعراني قد اطلع على كتب ابن عربي والغزالي قبله، وتأثر بكتب ابن عربي تأثراً أدنى به إلى أن يصبح بوقاً له يردد في كتبه آراءه بين الحين والحين.^(٦)

وتتميز هذه الحركة بعلاقتها بالعلم الظاهري وما عرف عندهم بالعلم اللدني، وأثر ذلك في المجتمع وطلاب العلم والعامة والفقهاء. وتتميز العلاقة بين الصوفية عمومًا وهذه الحركة بخاصة بالحكام والأمراء السياسيين وأبعاد نتائج هذه العلاقة، بتأثيرها الكبير فقد قدمت الحركة رؤى تجديدية أو إصلاحية أثرت في المجتمع المصري.

ثانياً: الشعراني وعلاقة حركته بالعلم

يذكر الشيخ الشعراني في مقاماته أن شيخه الخواص طلب منه في أول اجتماع به أن يبيع الكتب ويتصدق بثمنها على الفقراء ففعل، ومع أنه امتثل للأمر إلا أنه علق على ذلك بقوله أنه يبيع الكتب كأنه سلب العلم، وأن شيخه رد عليه بأن يعمل على قطع الالتفات إليها بكثرة ذكر الله ففعل، ثم أمره بالعزلة عن الناس حتى صفا وقته.

ولم يكن الخواص "الأمي" وحده هو صاحب التأثير في الشعراني، بل كان أغلب من تتلمذ عليهم - كما وصفهم البعض - من الجهلة والأमीين، فعلى الرغم من العلم الذي حصل عليه الشعراني كان مشايخه الذين وصل عددهم إلى السبعين لا يعرف أحدهم علم النحو كما ذكر الشعراني نفسه في كتابه (البحر المورود)، وكان عدد كبير منهم لا يقرأون ولا يكتبون، بل تجاوزوا في أغلبهم الالتزام بفروض الدين.

ومن أخطر الأمور التي أشار إليها الشعراني نفسه في كتابه (اليواقيت والجواهر) أن بعض مشايخه ومنهم الخواص نفسه كانوا لا يقيمون الصلاة، مبررين ذلك بأنهم يقومون بأدائها في المناطق المقدسة.

وحين أسس الشعراني زاوية له يلتقي فيها بطلاب العلوم الشرعية حوَّها إلى مكان لمريديه بما يتعلمونه من الأوراد والأذواق والأشواق، ووصفه بأنه أصبح مقصداً للعلماء والأدباء ومنيراً للدعوة والإرشاد وساحة للذكر

الاجتماعية، أو لأن العثمانيين كانوا متصوفة من حيث أساس إسلامهم، وهم لهذا قبلوا التصوف ودعموه.^(٧)

ودعم هذه الفلسفة ما طرحه بعض أقطاب التصوف من تفضيل إيمان العوام لسبق التقوى على العلم «اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» والاهتمام بالعلم اللدني أكثر من العلم الظاهري، أو سبق علوم الحقيقة الذي يبررونه بدليل من القرآن الكريم في تفسير دور الخضر عليه السلام في علاقته بالنبي موسى عليه السلام والذي ورد في سورة الكهف، وكذلك ما ورد من فضل للشيخ الخواص العامي على دور الإمام الشعراني العالم والذي أقر به الشعراني نفسه ودوَّنه في مقاماته. ولهذا اشترطت بعض الطرق ألا يدخلها أصحاب العلم الظاهري، وقصر أتباعها على العوام من غير المتعلمين، واعتبر البعض ذلك تفضيلاً للإيمان على التفلسف، والتعب على التأمل، وكاد الجانب النظري للتصوف ينطفئ حتى قبل مجيء العثمانيين.^(٨)

وإذا كان التصوف والمتصوفة قد نال اهتمام بعض المستشرقين من أمثال كرومر ونيكلسون وفولز، فإن الشعراني قد نال قدراً من التركيز بوصفه يمثل ظاهرة لها قدر من الخصوصية في الحركة الصوفية في مصر. والشعراني بدأ حياة التعلم العادية شأنه شأن غيره من الذين يلتقون بالمشايخ فيتعلمون متون العلوم الشرعية ويحرسون على حلقات العلم في المساجد حتى يشتد عودهم فيشاركون فيها. ويصادف تلقيه العلم على يد بعض مشاهير المشايخ في هذه الفترة مثل جلال الدين السيوطي وزكريا الأنصاري وناصر الدين اللقاني وشهاب الدين الرومي والسمانودي والشيخ علي المرصفي وغيرهم.^(٩)

وفي الوقت الذي انكب فيه على دراسة كل المذاهب، مع أنه كان شافعيًا، إلا أنه حرص على الارتباط بالصوفية ومشايخها منذ الصغر كما يذكر هو "أن الله ألهمه مجاهدة النفس منذ الطفولة"، وكان يقصد الشيخ الذائق، تكريساً لمقولة المتصوفة من ذاق عرف، والواصل صاحب البصيرة ليعينه على اختصار الطريق، ولم يجد ضالته الكاملة بينهم حتى التقى بشيخه علي الخواص الذي وصفه بقوله: "رجل غلب عليه الخلفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا

وهبات وعطايا، ولكن مع ذلك كان تأثيرهم في هذه الطوائف وتوجيههم لها قد فاق تأثير المانحين لهم والمتصدقين عليهم.

كذلك فإنه من المفارقات أن يعيش هؤلاء الفقراء المتصوفة الذين يدعون إلى الزهد والتقشف في عيشة أكثر سعة من غيرهم من طبقات المجتمع، ولعل هذا الأمر قد ساعد مشايخ التصوف كالشعراني من توسيع دائرة المنتمين إلى حركته من خلال الزاوية -أو الزوايا- التي أسسها أو اتخذها مكاناً لدعوته.

وإذا كان الشعراني قد ساعد في اتساع الأتباع والمريدين لطريقته ممن سماوا بالفقراء، وجعل منهم حسب وصف بعضهم دولة داخل الدولة، فإنه وقف أمام ادعاء المشيخة والدجالين من طلاب الدنيا والساعين لها، ومن أقواله في ذلك: "قلت لبعض التجار لم لا تجتمع مع الشيخ الفلاني فقال إن كان الشيخ شيخاً فأنا الآخر شيخ فإنه يحب الدنيا كما أحبها ويسعى في تحصيلها كما أسعى، بل هو أشد مني سعيًا على الدنيا"، ثم يعلق الشعراني على ذلك بقوله: "فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبي"، وكأن الشعراني بذلك يميل إلى أسلوب الفقراء المنقطعين للتصوف الذين لا يزاولون أعمالاً أو حرفاً".^(٩)

ثالثاً: الشعراني والنزاع بين الفقهاء والمتصوفة

على الرغم من اتساع تأثير المتصوفة على عامة الناس، وبالتالي استنادهم إلى قاعدة شعبية عريضة، إلا أن مجموعة من الفقهاء في الأزهر ظلت تهاجمهم وتتهمهم في الغالب بالخروج على قواعد الدين. وحاول المتصوفة إثارة السلامة في هذا الصراع، مستعينين ببعض العلماء من الأزهر من الذين كانوا قد اغرطوا في صفوف المتصوفة من أمثال الشعراني، في محاولة منهم لتخفيف قدر الهجوم والحصول على ما يشبه الإجازات التي تؤكد التزامهم بقواعد الدين لا خروجهم عليه، وكان هذا الجانب من أهم مظاهر حركة الشعراني الصوفية.

فلقد أخذ هذا الصراع أشكالاً متعددة وصلت إلى الحقد والقتل لبعض أقطاب التصوف، ووصف بعضهم هذه الظاهرة بالتعصب الديني الذي شهد بضيق العقول

والعبادة، وملجأً لأصحاب الحاجات والشفاعات من العوام الذين يتبركون بمشايخ التصوف.

ومع ذلك فإن الشعراني لم ينل رضا العلماء والفقهاء وكذلك المتصوفة دون أن يكون له بينهم موقفاً وسطاً، بل ترددت علاقته بكلا الجانبين بين التقارب والتباعد، والهجوم والدفاع، حتى بدا أمر تقويم دوره محيراً لبعض الباحثين.^(١٠) فقد وقف الشعراني من الفرق الصوفية التي ارتبط موقفها بالأولياء السابقين كالأحمدية والبرهامية والرفاعية، ونالت بسببه هجوم الكثير من الفقهاء والمشايخ فطعنوا فيها وحطوا من شأنها، إلا أنه وقف موقفاً وسطاً بين الهجوم عليها والرفق بها. ورأى أنه لا ينبغي الإنكار عليها إلا ما خالف الشرع أو الإجماع، وأنه يحسن الظن بها جميعاً، وأن الفقراء فيها -أو أتباعها- ليسوا خارجين على الشريعة لمجرد إشاعة تنطير حولهم، ولا ينبغي أن يشمل الحكم كافة الفقراء.

ويعلق بعض الباحثين على موقف الشعراني المهادن لهذه الفرق الصوفية بأنه بطبيعته متملق ومجامل للناس ومسالماً للخصوم، وبخاصة إذا كانوا أقوياء، فبعد أن كان موقفه مهاجماً لهم ويراهم خارجين على الشريعة في عصره، لكونهم تحولوا إلى الأكل من الصدقات، بعد أن كانوا يقتاتون من حرفهم، وأن أغلبهم يجهل فروض الوضوء وشروط الصلاة، وهم بهذا ليسوا شيوخاً يجمع المسلمون، عاد وامتدح بعض شيوخ الطرق من الأحياء وطالب بالأخذ بنصيحهم.

والذين يصفون دور الشعراني كحركة دعت لتوجيه جمهور من الفقراء المتصوفة اتسم بها هذا العصر، أو ما يسمى بمملكة الفقراء، يرونها بالسلب أو الإيجاب قد تركت أثراً على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر في العصر العثماني، فالفقراء المتصوفة الذين كانوا أساساً لهذه الحركة هم الذين تفرغوا للعمل الصوفي لعوامل متعددة، وهذا لا يعني أن غيرهم من فئات الشعب لم تكن مرتبطة بالتصوف أو طرقه كالفلاحين والحرفيين أو التجار.^(١١)

والغريب في الأمر أن هؤلاء الفقراء أو المتصوفة كانوا يعيشون على ما تقدمه لهم الطوائف الأخرى من صدقات

الأمر الذي يرجح التفسير القائل بخشيتهم على نفوذهم لدى العامة والحكام دون أن يكون الموقف من التصوف نفسه.

وعلى ذلك فإن الشعراني لم يكن له - كما رأى البعض - مكانة في الأزهر مع علمه وذويع صيته، وكان الكثير من فقهاء الأزهر وطلابه يبغضونه ولا يحبونه، وفسر ذلك بأنه حاول أن ينشد طريقاً صوفياً مستقلاً ومعه مريدوه وتلاميذه في زاوية مستقلة بهم وهي زاوية خوند، التي بدت في شكل مدرسة تجمع بين علوم الشريعة والحقيقة.

ومع ذلك فإن الشعراني لم يقف موقفاً معادياً من علماء الأزهر الذين كانوا يهاجمونه، فقد كان ينتقد بعض جوانب أو مظاهر يرى فيها خروجهم على قواعد الدين وينكر عليهم ثقافتهم على الدنيا وغفلتهم عن تكاليف دينهم، لكنه كان لا يستخدم أي أسلوب جارح أو أي شكل من أشكال التهجم بالشتائم كما كان يفعل خصومه منهم معه، وسأيره الكثير من المتصوفة عموماً وتلاميذه منهم خصوصاً في هذا الأسلوب.

وفي الجانب الآخر وقف فريق من المتصوفة موقفاً معارضاً، بل معادياً لحركة الشعراني. فمع أن الشعراني لم يقف موقفاً معادياً لمعارضيه من فقهاء الأزهر، وأنه كان معبراً عن فريق مهادن من المتصوفة وداعياً إلى الجمع بين علوم الشريعة وعلوم الحقيقة، إلا أن فريقاً متشدداً من المتصوفة ممن كانوا يرون أن علوم الحقيقة لا بد أن تسود، وأن مهادنة الفقهاء نوع من الخذلان لدولة الفقهاء، ولهذا سلك بعضهم أسلوب المقاومة للشعراني وحرركه، وأطلق عليهم الشعراني صفة مدعي التصوف.^(١١)

ويذكر الشعراني واحداً من أساليب معارضة المتصوفة له ولمريديه، تمثل في أن جماعة ممن سماهم مدعي التصوف اجتمعوا بجامع الغمري الذي كان وجماعته يتعبدون فيه، وأوقدوا كثيراً من القناديل وجلسوا تجاهه بقصد التشويش عليه، فانتقل إليهم وجلس في مجلسهم فمنعوه من الذكر معهم، ورفضوا طلبه بخفض أصواتهم، ولم ينقذه منهم سوى نومهم. وفي اليوم التالي عادوا إلى أسلوبهم نفسه في مضايقة الشعراني وجماعته، وانتهى الأمر إلى نشوب قتال بين الجانبين، فقد هاجم رجال الشعراني

وكدر النفوس. ومن أبرز مشايخ التصوف الذين قتلوا في هذه الفترة الشيخ عبد الرؤوف المناوي الذي اغتاله الفقهاء، وهو أمر سبق أن تعرض لمثله الشعراني نفسه إلى جانب تعرضه للتكيد والتشهير.

على أن الشعراني وإن مال إلى المتصوفة في هذا الصراع، إلا أنه وقف موقفاً وسطاً بين الفريقين، وهو أمر أسهم في عدم قبوله من التيارين، فقد رآه بعض العلماء من الأزاهرة خارجاً على الدين ويهدده بالخطر، ولم يكتفوا بمهاجمته، بل سعى بعضهم إلى قتله مرات عدة، وطالب بعضهم بنفيه خارج مصر، بخلاف اتهامه بالجهل بالشريعة والحقيقة معاً.

وحاول الشعراني أن يخفف من هجوم هذه الفئة من فقهاء الأزهر عليه، فانتهج أسلوب الإعلان عن التزامه بالكتاب والسنة في كتاباته، وأنه بريء مما سبواهم بالمارقين الذين يفسلون بين الشريعة والحقيقة، وركز على هذا المذهب في كثير من كتبه مثل: الجواهر والدرر، وقواعد الصوفية، ودرر الخواص، والبحر المورود، وإرشاد الطالبين، واليوافيت والجواهر وغيرها.^(١٢)

لكن الفقهاء وقفوا من أتباع هذا المذهب الذي تصدره الشعراني موقفاً رافضاً ومهاجماً ورأوا أن الدعوة إلى العلم والتبحر في الدين للمتصوفة أو ما سموه بالفقهاء أشد خطراً من الذين ظلوا على جهلهم مكتفين بادعاء معرفتهم بعلوم الحقيقة. وفسر بعض الباحثين موقف الفقهاء المعادي لهذا الفريق من علماء التصوف بأنهم شعروا أن علماء المتصوفة أكثر خطراً عليهم، لأنهم سيفقدونهم نفوذهم وتأثيرهم في العامة والحكام على السواء.

على أن موقف فقهاء الأزهر المعادي للشعراني لم يكن في مجمله معادياً للتصوف أو المتصوفة، وإنما كان من الشعراني ذاته، فقد حظي كثير من أرباب وأقطاب التصوف باحترام الأزهر وتقديره وسعى علماءه وطلابه لسماع دروسهم والتبرك بهم والتلمذ على أيديهم، لكن ذلك اقتصر في أغلبهم على علماء التصوف الذين كانوا ينفذون إلى مصر من خارجها كالشيخ مصطفى البكري وعبد الغني النابلسي، أما المتصوفة من أهل مصر فكانوا لا يحظون بهذا الموقف من فقهاء الأزهر،

لأن الكثير من هؤلاء قد أبدوا احتقاراً للفقهاء وأهله، وأعطوا أنفسهم مكانة قد تنافس مكانة الأنبياء، بل إنهم أوتوا قدرة من الله يجعلهم يفوقون الملائكة، وأرجع الشرعاني ذلك إلى التنافس الشديد بين هؤلاء المتصوفة الجهلة والفقهاء على الزعامة بين الناس وعند الحكام.

وأشار الشرعاني في جانب آخر عن سلطان شيوخ التصوف من الأميين، والذي تجاوز حدود الدين، فقد حُرم المريدون من الإقدام على أي عمل دون استشارة الشيخ والانتقاد لمشورته، فإذا بدا فساد في أمر فعليه المكوث بين يدي شيخه يلتزم منه العمل على تطهيره من ذنوبه، وهي أمور تلتقي مع ما أبحاثه المسيحية للقسس ولم تبحه شريعة الإسلام.^(١٣)

ومع أن الشرعاني قد حاول إرساء مذهبه في الانتصار للمتصوفة غير الأميين الذين يتلقون علوم الشريعة ولا يجدون فرقاً أو خلافاً بينها وبين الحقيقة، وأنه لم يحظ بسبب ذلك بتأييد أغلب الفرق الصوفية من سماهم بالأدعياء ومن الجهلة والأميين، ولم يحظ كذلك بتأييد الفقهاء، إلا أنه وقع - كما يراه بعض الباحثين - في كثير من الأمور التي كان ينتقدها في الجانبين معاً، ولعل أول شيء يؤخذ عليه هو علاقته بالشيخ علي الخوَّاص الأمي الذي تفرغ ليكتب ويرصد كل شيء عنه في مقاماته، وهو أمر أسهم في استمرار الاعتقاد في سيادة الأمية على العلم الذي ظل يناهض به. ومن أهم ما ذكره عن الخوَّاص أمره له ببيع الكتب والتصدق بثمانها والتفرغ للذكر أو علوم الحقيقة، وأنه امتثل لذلك مما يدعم هذا التيار،^(١٤) فدعم بذلك ما كان يسمى بحركة الفقراء في المجتمع دون أن ينجح في تغيير مسارها في الأخذ بجانب من العلم كما هو أحد أهداف حركته.

وأخذ على الشرعاني وحركته الكثير من المآخذ، فمع أنه أبدى اعتراضه على الإيمان بكرامات الأولياء الموتى وهو أمر جلب عليه مهاجمة أصحاب الكثير من الفرق الصوفية كالرفاعية والأحمدية وغيرها، إلا أن الكثير من كتبه قد امتلأت بما يشير إلى الإيمان بكرامات الأولياء الصوفية الموتى والعكوف على أضرحتهم وقبورهم التي أعطاها بعض صفات التقديس.

هذه الجماعة وأعملوا فيهم ضرباً. ولم يقف الأمر عند هذه الجماعة وحدها بل ذهبت بعض الجماعات الأخرى من المتصوفة على اتقام الشرعاني وجماعته بالخروج على الدين وإشاعة ذلك بين الناس.

وقد أسهمت هذه المواقف المعادية للشرعاني إلى عدم التزامه بأسلوب المهادنة مع المتصوفة الأميين أو الفقراء فهاجم طائفة منهم ادعت الولاية الكبرى زوراً وبهتاناً، فكتب رسالة سنة ٩٣٣هـ سماها "ردع الفقراء" ضمت ألواناً من السب وكيال التهم لهذه الطائفة، كانت غير مألوفة من قبل في أسلوبه، بل كان دوماً يعيب على من يستخدم هذا الأسلوب ضدهم، فقد اتهمهم بالجهل والكفر وسوء الأدب وأنهم أضل من الأنعام، وأن الفلاحين أقرب إلى الله منهم، لأن الفلاحين يقضون العمر في نفع العباد لكن هؤلاء يقضون العمر في ضرر الناس، وأن المشيخة على يدهم قد أصبحت باباً من أبواب التسول، وأن إبليس لما اجتمع به الشرعاني كما ورد في رسالته وبخه على قبول هؤلاء المضرورين تعظيم الناس لهم، وقال للشرعاني أنه يأبى ذلك لنفسه مع أنه إبليس.^(١٥)

وواصل الشرعاني مهاجمة هذه الجماعات من الفقراء المتصوفة في بعض كتبه الأخرى فاتهمهم بالكفر والكذب والافتراء، واتهم الذين يرتبطون بأولياء موتى بالمروق من الدين كالأحمدية والرفاعية والبسطامية وغيرها، وأنهم خارجون عن الشريعة لأنهم لا يفهمون أبسط قواعد الدين حتى الوضوء وأن الناس يأخذون العهود على أيديهم.

ومع أن الشرعاني قد حاول الحد من سطوة هذه الفرق من الفقراء الجهلة وسيطرتها على عقول العوام وذوي النفوذ من أصحاب السلطة أيضاً، وأنه حاول الاستعانة بالفقهاء وهو ما يشير إليه مهادنته لهم بالرغم من عدوانهم عليه، إلا أنه لم يحالفه التوفيق سواء لعدم تمكنه من حشد فريق من الأزاهرة من الفقهاء المتصوفة، أو لأن دولة أو جموع الفقراء من جهلة التصوف وأرباب الطريق كانوا أقوى من منكريهم.

على أن الشرعاني كان في رأي آخر محقاً إلى حد كبير في مهاجمته لهذه الفرق من الفقراء المتصوفة من الأميين الجهلة،

من خلال رواية للشعراني ذكر فيها أن الشافعي قد جاءه في المنام واصطحبه وعائلته إلى مقامه.

ورواية أخرى رواها الشعراني أنه ذهب إلى السيدة نفيسة لزيارتها مع بعض فقراء الصوفية أو بعض مرديه وأتباع حركته، فوقف عند باب ضريحها ولم يدخل مع رفاقه، فجاءته في المنام تأمره بأن يدخل ويجلس تجاه وجهها، فسمع قولها وعاد إلى المقام لينفذ ما أمرته به، واعتاد على ذلك.^(١٦)

ولعل في ذلك ما يشير إلى أن الشعراني قد عدل عن كثير مما دعا إليه في حركته الصوفية من عدم القبول بكرامات الأولياء الموتى، كما عدل عن عدم اتباع مشايخ الصوفية من الأميين كما فعل هو مع شيخه الخواص.

فبخلاف ما ذكره الشعراني عن الشافعي والسيدة نفيسة ذكر رواية أخرى عن الإمام الرفاعي وغيره من تربط بهم صلة في المنام الذي يجعله يتخطى العامل الزمني.

وهناك توجه آخر يمكن فهمه مما ذكره الشعراني في كتبه فيقول: "وما وقع لي مع سيدي عمر بن الفارض أنني ذهبت لزيارته يوم القائلة فنادت الخادم فلم يجيني والباب مغلق، فقرأت الفاتحة من على الباب ورجعت، فجاءني تلك الليلة وعليه عمامة عظيمة وثوب من الصوف أخضر، فصلني عندي في مدرسة أم خوند ركعتين وقال لي: اعذرني يا أخي فإني ما كنت حاضراً، ولكن واحدة بواحدة جزاءً، وكنت لم أسمع بنصف هذا البيت المذكور من قبل فعرفت شدة عزمه وفتوته. وعلمت أنه من الأولياء الأكابر لإطلاق سراحه وعدم تقيده بالمكوث في قبره، بل هو كالأحياء، يذهب حيث يشاء ويرجع إلى داره". ولعل الشعراني هنا كما يرى منتقدوه يشيرون إلى أن الولي الصوفي الميت يعيش متحرراً من قبره يذهب حيث يشاء كالأحياء وليس فقط يشعر بمن حوله من الأحياء بل يشاركهم الغزوات والحروب، وأشياء أخرى كما ذكر في موضع آخر عن سيدي غانم.

ويذكر الشعراني رواية أخرى عن السيد أحمد البدوي فيقول: "وما وقع لي مع سيدي أحمد البدوي أنه جاءني ودعاني أيام خروج الناس من مصر إلى مولده وقال لي إن

وأتهم الشعراني بالإسهاب في إسناد كثير، من الكرامات إلى نفسه، وإلى بعض شيوخ الصوفية، كما جاء في بعض كتبه مثل: "لطائف المنن الكبرى"، ومن أمثلة هذه الكرامات طي المكان والزمان والإبحار داخل الزمن وحول العالم وتحت الأرض وفوق البحار والسحاب في طرفة عين. وتضمنت كتبه ما يشير إلى النفاق مع الحكام السياسيين وفي نفس الوقت المطالبة بالتسليم لشيوخ التصوف وعدم الاعتراض عليهم مهما قالوا أو فعلوا.

وأورد المعترضون أجزاء من نصوص له في كتابه "لطائف المنن" مثل قوله: "مما أنعم الله به عليّ رؤيتي للأولياء الذين ماتوا ومباسطتهم معي وذلك لحسن أدبي معهم إذا زرهم ومعاملتي معهم معاملة الأحياء، وبعضهم رأيت ناقصاً في بعض المقامات، فتوجهت إلى الله تعالى في إعطائه كمال هذا المقام فما خرجت حتى كمل وشكر صنيعتي على ذلك ثم لحقني إلى بيتي تلك الليلة، وزارني منهم سيدي عمر بن الفارض". وعلق الكاتب على ذلك بأن الشعراني قد وضع نفسه في مرتبة أعلى من الأولياء وأن الله يقبل منه رفع درجاتهم.

وساق هؤلاء المهاجمون للشعراني وحركته مثلاً آخر ورد في كتبه، وهو أنه والشيخ شهاب الدين بن الجلي الحنفي زار رأس الحسين بالمشهد، وحين سأل شهاب الدين هل هذه رأس الحسين فعلاً فنام ورأى في نومه أن شخصاً في هيئة النقيب الصوفي خرج من عند الرأس وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظل شهاب يتبعه حتى دخل الغرفة النبوية فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: أن شهاب وعبد الوهاب (يقصد الشعراني) زارا قبر رأس ولده الحسين فرد النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم تقبل منهما واغفر لهما. وعلق الكاتب على ذلك بعدم تصديقه هذه الرواية من الشعراني.^(١٧)

ويروي هؤلاء قصة أخرى عن الشعراني الذي كان على المذهب الشافعي أن الإمام الشافعي قد عاتبه في المنام لعدم زيارته له، فزاره الشعراني وعزمه الشافعي فوق قبة ضريحه على أكل وبطيخ، وسخر الكاتب من هذه الرواية واعتبرها دليلاً على عدم صدق الشعراني، ويستكمل النقد

الشوني والشيخ أفضل الدين وغيرهم.

والشعراني في نهجه هذا يكرس الكثير من العادات للولي الصوفي كتقبيل اليد والرجل والخضوع بين يديه أو أمام ضريحه، ثم يجد نفسه فوق هؤلاء عن طريق المنامات التي كانت طريقة منتشرة ومقبولة لدى عامة التابعين أو دولة الفقراء، فها هو يسعى إليه الشافعي والبدوي والدسوقي من الأقطاب السابقين وكذلك الذين عاصروه كالحوّاص والمرصفي والمنشاوي وغيرهم، فيجعل نفسه في الصدارة على هؤلاء جميعاً.

ولم يقتصر الأمر عند الشعراني على أولياء مصر بل حاول أن يمدّه إلى الأولياء خارجها فيروي مناماً يرسخ من خلاله هذا الأمر ويجدد نوعاً من أدب السلوك مع الأولياء فيقول: "وكذلك مما وقع لي مع سيدي محمد بن عفان أني أردت ليلة أن أمد رجلي فصرت كلما أمدّها أجدها تجاه أحد من أولياء الأقطار فنمت جالساً، فأتاني سيدي محمد وقال لي: مد رجلك إلى ناحيتي، فاستيقظت ونعومة يده في رجلي بمدّها ناحيتي".

ولعل كل ذلك قد جعل من الشعراني مقصداً للفقراء من المعتقدين في الصوفية، أي زعيم حركة اجتماعية، بل كان لما اشتهر به مقصد غير المسلمين من الفقراء النصاري واليهود الذي قصدوه لشفاء مرضاهم بل حتى الإنس والجن، فيذكر في كتابه لطائف المنن الكبرى: "وما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ اعتقاد كثير من الإنس والجن واليهود والنصارى في الصلاح وإجابة الدعاء". ويذكر أنه حين سأل اليهود والنصارى عن اعتقادهم فيه مع اختلاف الدين فيردون أنه عندهم أعظم من البطرك ومن جميع أهل دينهم، ولعل ذلك يعطي بعداً أوسع لحركة الشعراني.

وكان من الممكن اعتبار حركة مثل حركة الشعراني في زعامة الفقراء وصاحب قدرة في استقطابهم إليه، وتأثرهم به واقتنائهم لتعاليمه وإيمانهم بكراماته أن تشكل ما يمكن تفسيره على أنه حركة ثورية أو حركة شعبية ضد استبداد السلطة السياسية والحكام المستبدين، لكن الظروف التي أحاطت بالحياة السياسية منذ ما قبل حياة الشعراني وما بعده وما أحاطت بالحركات الصوفية ودورها الاجتماعي

زرتني طبخت لك ملوخية، فلما ذهبت إلى طنطا طبخ لي جميع من ضيقتني فيها ملوخية ثلاثة أيام من غير تواطؤ تصديقاً لكلام الشيخ في المنام، وصار كل من يدخل القبة يبدأ بالسلام عليّ قبل زيارة الشيخ حتى استجيب فيه. وكانت أم ولدي عبد الرحمن لها معي مدة سبعة شهور وهي بكر فجاءني وقال: "احتل بها في ركن قبتي الذي على يسار الداخل وأزل بكارها ففعلت، فطبخ لي حلواء وملوخية حتى كفى أهل المولد، فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به في تلك الليلة". وهذه الرواية لها كثير من الدلالات؛ أولها أن الأولياء الكبار ذائعي الصيت من أمثال البدوي يسعون إلى الشعراني لطلب زيارته لهم، والثاني أن الأولياء يمكنهم مساعدة الناس -وبخاصة البدوي- على التغلب على العجز الجنسي.

وجاء الشعراني برواية أخرى تؤكد سعي الأولياء الموتى له وطلبهم زيارته فيروي: "وما وقع لي مع سيدي إبراهيم الدسوقي أنه جاءني وقال لي زرنى الله تعالى، فزرتّه، فخرج إليّ من قبره فنزع عمامته فألبسها لي ووضع عمامته على ركبتي ساعة وقال: قد نزلت لك على ما بيدي من قراءة الحديث في الحجرة النبوية وتدرّس العلم فحصل لي بذلك أنس عظيم". والشعراني هنا يدعم ما ذكره من قبل في طلب الأولياء منه زيارتهم له ثم طلب الدسوقي منه التدريس في المسجد النبوي أو منحه إجازة لذلك.^(١٧)

وإذا كان بعض الباحثين قد أخذ على الشعراني تبعيته لشيخ أمي هو الشيخ علي الحوّاص، حيث أعلّى بذلك دور ما يسمونه بعلوم الحقيقة على العلوم الشرعية، فإن الشعراني في رواياته عن المشايخ الموتى المشهورين وكذلك الأحياء من أمثال الحوّاص قد أعلّى نفسه -بنفس أسلوهم- عليهم، فيروي عن الحوّاص: "وما وقع لي من سيدي علي الحوّاص أنني أكثرت من الترحم عليه في مجلس فرأيتّه في تلك الليلة وهو حريص على تقبيل رجلي وأنا حريص على منعه من ذلك، ثم غلبني في غفلة وقبل باطن رجلي فاستيقظت ونعومة فمه في باطن رجلي".

وذكر أمراً ماثلاً مع شيخ من معاصريه وهو الشيخ محمد المنشاوي والشيخ علي المرصفي والشيخ نور الدين

الضرائب وجباية الأموال من الناس بالباطل. لكن الجانب السليبي من علاقة شيوخ التصوف بالحكام والأمراء هو أن ذلك قد أسهم في إجهاض أي ثورة شعبية على الأوضاع السياسية والاجتماعية، وأرست منهج التواكل والتمرد على أبسط أشكال الحياة الإيجابية، وهو العمل، وهذا ما كان له تأثيره في استمرار ضعف الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وتندرج حركة الشعراني الصوفية تحت هذا التفسير، أو تمثل نموذجاً واضحاً له بكل أبعاده الإيجابية والسلبية، فالشعراني الذي دعم التصوف مع ضرورة الاعتماد على التعليم؛ أي الجمع بين العلم الظاهري والعلم الحقيقي، عانى من أهل العلم في الأزهر حيث عادوه وهاجموه، وعانى من أهل التصوف فلم يقبلوه، وبين الفريقين اختار الاندراج والاندماج في دولة الفقراء المتصوفة فأعلن أنه بما أوتي من علم هو تلميذ أحد أقطاب التصوف الأميين هو الشيخ علي الخواص.^(٢٠)

وبعد أن انضم علناً لفريق شيوخ التصوف ودولة الفقراء سعى لأن يكون التميز بينهم وصاحب التأثير الأقوى، فأسند إلى نفسه هذا من خلال الرؤى والأحلام مبتعداً عن وسائل العلم الذي تعلمه في الأزهر، وربط نفسه بتميز مع شيوخ الصوفية الأموات مثل البدوي والدسوقي والأحياء من أمثال الخواص فنال شعبية واسعة بين فقراء المتصوفة، وبهم ومن خلالهم نال حظوة ومكانة لدى الحكام والأمراء.

الخلاصة:

كان الشعراني هو مَنْ معه من مريديه زعيماً لحركة صوفية شعبية وليس زعيماً لحركة اجتماعية أو سياسية تقصد التغيير، ولهذا تندرج حركته تحت أفكار دعم التصوف أو الدين الشعبي المرتبط بالحكومات والمدمع لها وليس الرافض أو الثائر عليها.

وحركة الشعراني هذه قد تركت أثراً بالغاً، سواء في الشعب المصري أو في دائرة المشرق الإسلامي إبان العصر العثماني، ألا وهو دعم التصوف الغيبي الأمي على حساب ضعف التعليم والتقليل من شأن أهله. ولو أضيف إلى جانب

قد فرضت قدرًا من التقارب بين شيوخ التصوف والحكام السياسيين، سواء لما كان يحيط بمحركات التصوف من نزوع للزهد والتقشف وترك ملذات الدنيا أم لطبيعة المشايخ أنفسهم.

والسائد أن الحكام السياسيين قد تأثروا بهؤلاء الشيوخ وسعوا للاتصال بهم والظفر بمرضاتهم والعمل على نيل دعوتهم، وما كان ذلك إلا بقصد استغلال نفوذهم لدى عامة الناس لتفادي ثورة هؤلاء الناس أو تمردهم. وعلى ذلك نجد كثيرًا من الحكام والأمراء يقومون بإنشاء أضرحة الأولياء وتنظيم موالدهم، ويفرقون على مشايخهم الهدايا والعطايا والندور، وسط تظاهر بتقبييل يدهم والركوع أمامهم حتى يدعمون ارتباط العامة بهم.

وكان الشعراني من بين هؤلاء الذين بلغ نفوذهم عند الحكام مبلغاً كبيراً، فكان يسعى لتعيين القضاة والمحاسبين وشيوخ العرب في وظائفهم كما ذكر هو في كتابه "البحر المورود".^(١٨)

وكان من أثر ذلك التقارب بين أقطاب الصوفية والحكام والأمراء أن ازدادت أرزاق المشايخ وعاشوا فيترف لا يتناسب مع تركيزهم على الزهد والتقشف. ويذكر الشعراني عن أحد هؤلاء المشايخ وهو الشيخ الدويب أنه حين وافته المنية خلف مائة ألف دينار لا يعلم أحد مصدرها لأنه كان متجرداً من الدنيا زاهداً في جاهها، كما أن من بين من نال هذا الإغداق في الأرزاق الشعراني نفسه.

ويفسر توفيق الطويل هذا النفوذ الذي كان لشيوخ الطريق عند الحكام بأنه كان يمثل سلطة الشعب أمام هؤلاء الطغاة، وأنه بهذا تجلت إرادة الأمة حتى في أشد فترات الاستكانة أمام استبداد الحكام، وأشار إلى أن الشعب قد استفاد من هذا النفوذ في رد بعض المظالم والكف عن البغي ورد العدوان وذلك لأن شيوخ التصوف كانوا حلقة الاتصال بين الشعب المظلوم والحكام الجائر، وكانت وساطة الشيوخ حجابة وشفاعتهم مقبولة في كثير من الأحيان.^(١٩)

وفسر الطويل أن الإغداق الواسع من الأرزاق من الحكام على الشيوخ كان ينفعها الشيوخ على عموم الفقراء من الناس، فكانت تخفف من قدر الجور والتجبر في فرض

للشعراني يحفظ أغلبها في دور الكتب. ونذكر منها ما ذكره الشعراني نفسه مثل: البحر المورود في المواثيق والعهود. والغمة عن جميع الأمة. والمبين في بيان أدلة المجتهدين. والبدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير. والأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية. وقواعد الصوفية. ومختصر قواعد الزركشي. والجواهر المصنوع في علوم كتاب المد المكنون. وطبقات الصوفية. ومفحم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد. ولوائح الخذلان عن كل من لم يعمل بالقرآن. والطبقات الكبرى^(٢١).

ذلك عدم اهتمام الدولة العثمانية بالتعليم لأسباب متعددة لأدركنا كيف أن مثل هذه الحركات قد أسهمت في ضعف الحياة الاجتماعية والفكرية، وعدم وجود رواد يسهمون في حل القضايا الاجتماعية أو السياسية في هذه الحقبة على نحو يسر للدعوان الخارجي سهولة اجتياح البلاد.

بقي أن نشير إلى أن الشعراني قد ترك كثيراً من المؤلفات التي شملت التفسير والحديث والفقه والنحو والطب والكيمياء، لكن أغلبها كان في التصوف. وقد أحصى المستشرق كارل بروكلمان أكثر من ستين مخطوطة

المراجع

- (١) قرية قلقشندة وكذلك قرية ساقية أبو شعره تقعان علي فرع دمياط في الدلتا شمال مصر في مديرية المنوفية.
 - (٢) النجار، عامر. الطرق الصوفية في مصر، نشأتها ونظمها وروادها، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م، ص ٣٠ وما بعدها.
 - (٣) بيومي، زكريا سليمان. قراءة إسلامية في تاريخ العثمانيين، مصر: دار العلم والإيمان، ٢٠٠٨م، ص ٣٢.
 - (٤) بيومي، زكريا سليمان. الصوفية ولعبة السياسة في مصر الحديثة والمعاصرة، القاهرة: دار الصحوة، ص ٤١.
 - (٥) الطويل، محمد توفيق. التصوف في مصر في العصر العثماني، القاهرة، دار الفكر، ط ١، ١٩٨٠م، ص ١٢٤.
 - (٦) المرجع السابق، ص ١٥٢. والشيخ الخواص استمد لقبه من حرفته حيث كان يعمل الأواني من سعف النخيل أو خوصها ولم ينل أي قدر من التعليم، لكن الشعراني أسند إليه كثيراً من الخوارق والكرامات.
 - (٧) منصور، أحمد صبحي. المسلمون وعبادة الأحجار، موقع أهل القرآن، انظر:
- http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?doc_type=1&doc_id=2352
- (٨) الطويل، التصوف في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق، ص ١٥٤.
 - (٩) الفهري، بشري. «الإمام الشعراني ونبذة عن رسالته المسماة الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية»، مجلة التصوف الإسلامي،

١٩٩٠م.

(١٠) الطويل، محمد توفيق. الشعراني إمام التصوف في عصره، القاهرة:

سلسلة أعلام الإسلام، ١٩٤٥م، ص ٦٠، ٦١.

(١١) المرجع السابق، ص ١١٠.

(١٢) منصور، المسلمون وعبادة الأحجار، مرجع سابق.

(١٣) الجبرتي، عبد الرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار،

بيروت: دار الجيل ط ١، ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٢٧٥ وما بعدها.

(١٤) الشعراني، عبد الوهاب. الطبقات الكبرى، القاهرة: طبعة الخانجي،

د.ت، ج ١، ص ١١٨-١٢١.

(١٥) منصور، المسلمون وعبادة الأحجار، مرجع سابق.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) الطويل، الشعراني إمام التصوف في عصره، مرجع سابق،

ص ١٢١.

(١٨) الشعراني، عبد الوهاب. البحر المورود، بيروت: دار الكتب

العلمية، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٣.

(١٩) الطويل، التصوف في مصر في العصر العثماني، مرجع سابق،

ص ١٦٨.

(٢٠) بيومي، الصوفية ولعبة السياسة في مصر الحديثة والمعاصرة،

مرجع سابق، ص ١٠١.

(٢١) مازالت أغلب هذه المراجع مخطوطة ومحفوظ الكثير منها بنقابة

الأشراف في مصر، وبعضها بمكتبة المخطوطات بالهيئة المصرية

العامة للكتاب.